شوقيتان لم تنشرا فى الديوان

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

— ١ —

تمهيد

يعلم قراء «الرسالة» الزاهرة مدى إعجابى بشعر أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقى بك، ويعلم القراء الكرام أيضا تعصبى له وتفضيلى شعره على شعر غيره من الفحول الكبار، ومن تحصيل الحاصل قولى أن نهضة مصر الأدبية الحديثة قامت على أكتاف ثلة نادرة من أفذاذ الرجال، كان على رأسهم شوقى الذى استطاع بما وهبه الله من عبقرية ملهمة وقريحة وقادة وعلم غزير، أن يثب بالشعر العربى إلى قمة الإبداع، بعد أن كان محنطا بقوالب من المحسنات اللفظية السخيفة، فهو بحق الحد الفاصل بين موت الشعر وحياته، لأنه رحمه الله لم يكن كغيره من شعراء القريحة، أمثال الرصافى وحافظ، يعتمد على محصوله اللغوى من الألفاظ والمرادفات، ومحفوظه من عيون شعر من سبقوه من الأفذاذ، كزميله سامى البارودى، بل كان نسيج وحده، وطرازا لا شبيه له، لأنه كان يغترف من بحر خضم متلاطم الأمواج، هو بحر العبقرية والإلهام والنبوغ، ولو لم يكن كذلك لما تقدم شاعر النيل لمبايعته هاتفا:

أمير القوافى قد أتيت مبايعا ... وهذى وفود الشعر قد بايعت معى

ولا أجد فى معرض الحديث عنه وعن شعره أصدق ولا أكمل من قول المرحوم الرافعى، إذ قال فيه: (١)

«هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتسار فى الجو، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر، وهى لم تذكر فى الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة، ولم يستعض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى. ولولا البارودى وصبرى وحافظ فى المتأخرين وكلهم أصحاب دواوين صغيرة لما ذكرت مصر بشعرها فى العالم العربى. على أن كل هؤلاء لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقى وحده

كل شاعر مصرى هو عندى جزء من جزء ولكن شوقى جزء من كل. والفرق بين الجزءين أن الأخير فى قوته وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل. ولم يترك شاعر فى مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقى، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه، وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء عصره وارتفع عليهم.. إن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر.. الخ»

وإلا فدلونى على شاعر غير شوقى تمكن أن ينظم فى كل الفنون والأبواب فيجيد ويبدع؟ أنا أعلم أن أكثر الشعراء يجيدون فى لون من ألوان الشعر فيشتهرون به كما حدث بالفعل. فأبو نواس مثلا أجاد فى الخمريات وأبو العتاهية فى الزهديات والنابغة فى الاعتذاريات والمتنبى فى الحكمة وهكذا.. أما أن يجيد الشاعر فى كل باب فهذا لم يحدث فى تاريخ الشعر العربى قط ولم يتح منذ الجاهلية حتى الآن إلا لشوقى؛ لأن شوقى لم يكن شاعر مصر فقط ولا العروبة وحدها ولا الإسلام خاصة، بل كان شاعر الشرق كله أو قل الانسانية جميعها، وهكذا يكون الشعراء العالميون الخالدون. وشوقى بعد هذا كله جمع فى رأسه ونفسه نفسيات جميع الشعراء وأفرغها بعد فحصها فى ثوب جديد خاص به، وبذلك دل على أن أسلوبه لا يجاريه أسلوب، حتى ليستطيع المتذوق لشعره أن ينسب كل ما قال من الشعر له حتى ولو غالط مدع ونسبها إلى غيره؛ لأن ألفاظه وتعبيره وديباجته تم عليه كما يتم العطر على الوردة ولو اختفت بين الأشواك، وهذه ميزة قلما ينفرد بها أحد غير العباقرة الملهمين

وإذا لم تكرار القول وإعادة الحديث أن أبدى إعجابى بشوقى إلى هذه الدرجة من الإفراط والتطرف، ومن التهيج أن أذكر ذلك، ولكنى فى هذا الحديث مرغم لأنى أعجب غاية العجب من عدم عناية أدباء مصر بشعر سيد شعرائهم وخصوصاً شعره الذى لم يدرج فى كتاب ولم يضم إلى دواوينه الأربعة. ولما كنت

(١) حديث للمرحوم مصطفى صادق الرافعى نشر فى الجزء الرابع من المقتطف ١٩٣٢ وألحق فى الجزء الثالث من كتابه «وحى القلم»

أعتقد أن لشوقي قصائد كثيرة لم تنشر أخذت أعسى بجمع أكثر القصائد التي أعثر عليها في بطون الصحف الأدبية القديمة التي كانت تسعى إلى نشر ما يقوله أمير دولة الشعر وكرسي الأدب حتى تمكنت بعد جهد جهيد وسعي متواصل أن أحصل على عشر قصائد نشرت اثنين منها في الرسالة الغراء قبل عام وها أنا أتبعها الآن بقصيدتين من عيون شعره ، على أن أقدم بعد ذلك ما لدي من شعره في كتاب صغير بعنوان « شوقيات لم تنشر » بعد أن أقدم لهذا الشعر مقدمة ضافية تليق بمكانة قائلة

عتاب رؤساء :

لا أظن أن شاعرا في الدنيا أحب أنجاله وأولاده بقدر ما أحب شوقي عليا وحسيناً ، والمتتبع لقراءة شعره يلمس حنانه لهما في كل ما تعلق به ، حنان الأبوة الصادقة والقلب العطوف ، فهل بعد ذلك الحنان بر أنجاله به ، أنا لا أريد أن أتحامل عليهما إكراما لأميرنا.. ولكني أود أن أقول ما سبب تقاعسهما عن جمع ما لديهما من شعر في ديوان جديد ؟ المال موجود لديهما والحمد لله ! دور النشر ما أكثرها في مصر ! ثم ما ذنبنا نحن المعجبين بشوقي وبشعره أن نحرم منه ! أين إذن مسرحية « البخيلة » ومسرحية « الست هدى » وهما تمثلان ذلك العصر أصدق تمثيل ؟!

أين شعر والدهما الباقي ؟ ! إني أهيب بكل أديب عربي يحمل في قلبه ذرة من الحب لشوقي ولمصر أن يحث الأستاذين الكريمين وهما أكبر أنجاله على طبع روايتيه الشعريتين « البخيلة » و « الست هدى » ليسديا بذلك إلى المسرح والشعر يداً تذكر فتشكر . كما أطالب إخواني الأدباء الذين يحرصون على قراءة شعر شوقي في ديوان جديد أن ينشروا ما لديهم من شعره المنسي على صفحات الرسالة الزاهرة أو يرسلوه إلى لأضمه إلى مجموعتي كي أستطيع أن أظهرها الوجود في القريب العاجل إن شاء الله

الشوقية الأولى

قلت إنني عثرت بعد تنقيبي وبحثي في حنايا الصحف على بعض الشوقيات التي خلت منها دواوينه.. وأولى هذه اللفحات عثرت عليها في الصفحة « ٢٧٠ » من الجزء الرابع مجلد « ٥ » من مجلة « الزهراء » القاهرية لسنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م والتي كان يصدرها في مصر الأستاذ محب الدين الخطيب خال صديقنا الأستاذ علي الطنطاوي.. وهذه الدرة الشوقية نظمت في تكريم الشاعر الأستاذ المرحوم عبد الحميد بك الرافعي . . وقد قدمها محرر الزهراء بهذه الديباجة :

« أقيمت في طرابلس الشام حفلة تكريم عظيمة للشاعر الكبير الأستاذ عبد الحميد بك الرافعي في شوال الجاري « أي سنة ١٣٤٧ م » ألقيت فيها قصيدة أمير الشعراء »

فمن هو هذا الشاعر الذي كرمه شوقي ؟

لم أجد للشاعر عبد الحميد الرافعي ترجمة أعتمد عليها ولكني وجدت في « مختارات الزهور » (٢) كلمة عن شعره هي :

« عبد الحميد بك الرافعي من أدباء طرابلس الشام المعدودين ، وسليل أسرة عريقة في النسب . مشهور عن أفرادها العلم والفضل . أما شعره فشعر البداوة مع مسحة حضرية ، فصيح الألفاظ ، جيد التراكيب . له ديوان حافل بغرر المنظومات .. » ا هـ (٣)

ومن شعره قوله في « المشيب (٤) »

يا شيب عجلت على فتى ظلماً ، فيا ابن الدور ما أظلمك
بدلت بالكافور مسكي وما أضواه في عيني وما أعتمك
من يقبل الفاضح في ساتر فهات ليلاك وخذ مرهمك
غرك أن الشيب عند الورى بكرم ، هل في النيد من أكرمك
فليت أيام شبابي التي أرقتها غدراً ، أراقت دمك

وإلى هنا أقف من الشرح لأقدم للقراء وخصوصاً المعجبين

(٢) الزهور مجلة أدبية علمية فنية كان يصدرها في مصر المرحوم أنطوان الجميل وأمين تقي الدين ، ومختاراتها مجموعة تحوي قصائد لشعراء ذلك العصر مع صورهم . وقد طبعت المختارات بمطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩١٤

(٣) لم أعثر على الديوان الذي أشارت إليه المختارات ، ومن كانت لديه ترجمة الشاعر الرافعي أرجو أن ينشرها في الرسالة خدمة للأدب والتاريخ

(٤) ص (١٦٢) من المختارات

بعبقرية أبي على الخالد قصيدة كاملة وهي انتى قالها فى تكريم الرافعى

أعرفى النجم أوهب لى يراعا ... يزيد « الرافعيين » ارتفاعا
مكان الشمس أضوأ أن يحلى ... وأنبه فى البرية أن يذاعا (٥)
بنوا الشرق الكرام الوارثوه ... خلال البر والشرف اليفاعا (٦)
تأمل شمهم ومدى نحاها ... تجد فى كل ناحية شعاعا
قد اقتسموا اعمالكم فكانت ... لهم وطنا من « الفصحى » مشاعا
هموا زادوا « القضاء » جمال وجه ... وزادوا غرة « الفتيا » اليماعا
أبوا فى محنة « الأخلاق » إلا ... لياذاً فى العقيدة وامتناعا
أووا شيباً ، وشبانا إليها
تخالهمو « الصحابة » والتباعا (٧)
إذا أسد الشرى شبت فمفت ... رأيت شبابهم عفوا جياعا
فلم تر « مصر » أصدق من « أمين »
ولا أوفى إذا ريبت دفاعا
فتى لم يعط مقوده زماناً ... شرى الأحرار بالدنيا وباعا
عظيم فى الخصومة ما تجنى
ولا ركب السباب ولا القذاعا (٨)
تمرس بالفضال فلست تدرى ... أأقلاماً تناول أم نباعا (٩)
ويا ابن السابق المزرى ارتجالا ... برواض القصائد وابتداعا
أما يكفى أباك السبق حتى ... أتى بك أطول الشعراء باعا
شدا الحادى بشعرك فى الفيافى ... وحركت الرعاة به اليراعا
وفات الطير ألفاظاً فخامت ... على المعنى فصاغته صناعا
إذا حضر البلابل فيه لحن ... تبادرت الحمام له استماعا
مشى « لبنان » فى عرس القوافى ... وأقبل ربوة واختال قاعا
وهز المنكبين لمهرجان ... زها كالباقة الحسنى وضاعا (١٠)

وأقبلت الوفود عليه تترى
كسرب النحل فى الثمرات صاعا (١١)
فدا يزجى الركاب وراح حتى ... أظل « دمشق » وانتظم البقاعا
ترى ثم القرائح والروابى ... تبارين افتناناً واختراعا
ربيع طبيعة وربيع شعر ... تخلل نفح طيبهما الرباعا
كأنك بالقبائل فى « عكاظ » ... تجاذبت النابر والقلاعا
بنت ملكا من « الفصحى » وشادت
بوحدتها الحياة والاجتماعا
فعادت أمة عجباً وكانت ... رعاة الشاء والبدو والشماعا (١٢)

* * *

أمير المهرجان ، وددت أنى ... أرى فى مهرجانك أو أراعى (١٣)
عدت دون الخفوف له عواد ... تحدين الشيئة والزماعا (١٤)
وما أنا حين سار الركب إلا ... كباغى الحج هم فما استطاعا
أقام بشبنه لم يقض حقا ... ولا بل الصبابة والنزاعا (١٥)

* * *

« طرابلس » انثنى عطفا أديما ... وموجى ساحلا وثنى شراعا
كسا جنباتك الماضى جلالا ... وراق عليه ميسمه وراعا (١٦)
وما من أمس للأقوام بد ... وإن ظنوا عن الماضى انقطاعا
ألم تسقى الجهاد وتطعميه ... وتحمى ظهره حقباً تباعا ؟ !
شراعك فى « الفنيقيين » جلى ... وذكرك فى « الصليبيين » شاعا
كأنى بالسفين غدت وراحت ... حيالك تحمل العلم المطاعا (١٧)
« صلاح الدين » يرسلها رياحاً ... وآونة يصففها قلاعا (١٨)
أليس البحر كان لنا غديراً
وكانت فلكنا « البجع » الزناعا (١٩)

٥) ذاع الخبر انتشر
٦) اليفاع . التل المشرف أو كل ما ارتفع من الأرض وهنا أراد الشرف العالى
٧) التباع . الأتباع شبههم الشاعر بأتباع الرسول وصحابته
٨) القذاع . السب الفاحش
٩) التباع « تبع وتبعة » شجر تتخذ منه السهام والقسى
١٠) ضاع . الزهر فاح نشره
١١) صاع . تتابع
١٢) القطاع : المتفرق والقليل (طارت نفسه شعاعا) أى تفرقت
١٣) أراعى : أصغى وأستمع
١٤) الزماع : الاسراع
١٥) النزاع : الاشتياق
١٦) الميسم : العلامة
١٧) العلم : الراية
١٨) يقصد الشاعر بهذا البيت أن هذه السفن تذهب آونة للتجارة وأخرى للحرب
١٩) البجع : طائر عريض المنقار طويله واحده بجعة كناية عن عظم السفن